

صورة عاد في الشعر الجاهلي

د. أنور أبو سليم

جامعة مؤتة

رَبَطَ بَعْضُ الْمَوْرِّخِينَ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ الْأَحْدَاثَ السِّيَاسِيَةَ وَالْاجْتِمَاعِيَةَ
بِمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ وَأَفْكَارِهِ وَطُمُوحَاتِهِ، فَزَدُّوا الْأَشْعَارَ وَالْخُطَبَ وَالْأَمْثَالَ الَّتِي قِيلَتْ
فِي الْمُنَاسَبَاتِ وَالْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، وَتَنَبَّهُوا عَلَى أَهْمِيَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَنْفَعِلُ
بِالْحَدَثِ وَيَحْسُهُ وَيَتَأَثَّرُ بِهِ؛ فَسَجَّلُوا كَثِيرًا مِنْ حِكْمِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ شِعْرًا
وَنَثْرًا، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَوْرِّخِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الْأَشْعَارِ وَالْأَمْثَالِ وَالْقَصَصِ وَثَائِقِ يَمَكُنُ
بِوَاسِطَتِهَا أَنْ يُفْنَعُوا الْقَارِئَ بِصِحَّةِ الْخَبَرِ، لِأَنَّ الشَّعْرَ اتَّخَذَ دَلِيلًا عَلَى الْخَبَرِ
وَشَاهِدًا عَلَيْهِ يُسَاقُ مَعَهُ لِيُؤَكِّدَهُ. وَمِنْ هَذِهِ الزَّوَايَةِ كَثُرَ النَّحْلُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْقَدَمَاءِ،
وَحَمَلَ رُؤَاةَ الْأَخْبَارِ عُثَاءً كَثِيرًا مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يَزِيدُ الْخَبَرَ ضَعْفًا أَكْثَرَ مِمَّا يَزِيدُهُ
صِدْقًا وَإِشْرَاقًا وَإِحْسَاسًا، وَغَابَ دُورُ الْإِنْسَانِ فِي صِنَاعَةِ التَّارِيخِ. وَهَذِهِ أَوَّلُ عَقَبَةِ
تَوَاجُهٍ مَنْ يَبْحِثُ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالْمُورُوثِ الثَّقَافِيِّ الْقَدِيمِ؛ لِأَنَّ الشَّعْرَ
أَحْيَانًا فِي كُتُبِ التَّارِيخِ تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ مُصْطَنَعَةٌ لِلرَّوَايَةِ التَّارِيخِيَّةِ.

والعقبة الثانية: أن الموروث الثقافي عند العرب مزيجٌ من التاريخ والمعتقدات
الدينيَّة والخُرَافِيَّةِ وَالْقَصَصِ، وَالْأَمْثَالِ وَالْأَسَاطِيرِ، وَالْخُرَافَاتِ، وَالْمَلَا حَمِ الشَّعْبِيَّةِ،
وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ يَبْرُزُ الشَّعْرُ خَافِتًا بَاهِتًا مُجْتَزَأً. وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْأَسَاطِيرِ
وَالْقَصَصِ، لَمْ يُدَوَّنْ إِلَّا فِي فِتْرَةٍ مَتَأَخَّرَةٍ، وَلَقِيَ مِنَ الْمَوْرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ الْإِهْمَالَ
وَالنَّقْدَ، وَكَانَتْ الْأَحْدَاثُ - غَالِبًا - تَخْضَعُ لِمَنْطِقِ الْمُفَسِّرِينَ وَقِيَمِهِمْ خِدْمَةً لِكِتَابِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ، مُهْتَمِّينَ بِالْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مِنْ مُجْمَلِ الْأَحْدَاثِ. وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ
الصُّورَةَ الْقَدِيمَةَ لِلْقَصَصِ التَّارِيخِيِّ هِيَ نَفْسُهَا الصُّورَةُ الَّتِي رَوَاهَا الْمَوْرِّخُونَ

المسلمون في القرن الثاني الهجري والقرون التالية؛ فقط أُسْقِطَ منها ما يَتَنَافَى وقيَمِ الدِّينِ الإسلامي الحنيف وما يتعارض ومبادئه، وبقي من تراث الإنسان الجاهلي قليلٌ من الأساطير والخرافات تكشف عن إنسان مُشوَّهِ لا ثقافةً لديه ولا حَصَارَةَ، فَوُسِمَ بالجهالة، ووُصِمَ بالانحطاط، ونُعِتَ بالأُمِّيَّة.

وجاء القرآن الكريم يتحدثُ إلى القوم عن عادٍ وثمودَ والأُممِ الماضية، وما أَلْفُوا من ثقافات وما وَعَوَا من حَصَارَات، ولم تكن طَرَافَةَ أخبارِ الأُممِ القديمة مقصودة لذاتها، ولم يأت القرآن الكريم لِيُضِيفَ معلوماتٍ جديدةً إلى تاريخ العَرَبِ، وإنَّما كان الهَدَفُ العِظَةُ والعِبْرَةُ والتَّدْبِيرُ، ولو جاءهم بأخبار لم يسمعوا بها ولم يعرفوها لأنصَرَفَتْ عنايةهم إلى دَحْضِهَا ومناقشتها وإنكارها، ولم نسمع أَنَّ وثنيي العرب ناقشوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مدى صِحَّةِ الأخبار القرآنية؛ لأنَّهم يعرفونها بصورة مطابقة أو قريبة من التصوير القرآني لها، ولديهم - في مواضع معينة - معلومات أكثر تفصيلاً ممَّا جاء في الذكر الحكيم.

ولا شكَّ أَنَّ موروثاتهم عن الأُممِ القديمة لم تكن تَأْرِخاً مَحْضاً، وكانت أشعارهم عندما يتحدثون عن الأُممِ السالفة يختلط فيها التاريخ بالخيال والمعتقدات الخرافية والأساطير والرؤى الشعرية. وهذه مهمة الشاعر الحقيقية كما يرى أرسطو^(١): "صانع حكايات وخرافات أكثر منه صانع أشعار" .. والشاعر الجاهلي كان يَرْتَدُّ كثيراً إلى الموروثات الثقافية والحضارية فيعيدُ صياغتها، ويُعبِّرُ من خلالها عن رُؤَاه وتَصَوُّراته للحياة والكُونِ والوُجُودِ.

ونحنُ نُؤْمِنُ بأنَّ الشاعر الجاهلي يُعَدُّ من صفوة المجتمع، وأنَّه كان - أحياناً - حكيم القبيلة ومتفكِّها، وكاهنها، وأنفذها إحساساً، وأقدرها على نقل مشاعره وتجاربه وثقافته ومعلوماته وتحويل المادة التراثية إلى مادة أدبية؛ لذلك كان البَحْثُ

(١) أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م.

عن صورة عاد في الشعر الجاهلي مُفدِّمةً صالحةً لبحثٍ أشمَلَ وأوسعَ في علاقة الشعْر الجاهلي بالموروثات الثقافية، وله أهميةٌ خاصة؛ لأنَّه يكشف عن المُكوِّنات الثقافية للأُمَّة العربية من ناحية، ومن ناحيةٍ أُخرى يكشف عن ثقافة الإنسان الجاهلي وطرائق تفكيره عندما يَرْتدُّ إلى الحضارة التي مرَّت بها الأُمم القديمة، ويدفع من جانب آخر شكوك بعض المستشرقين والباحثين في حقيقة وجود (عاد) التي عدَّها بعضهم في زُمرة الأَقوام الخُرَافِيَّة التي ابْتَدَعَتْهَا مَخِيلَةُ الرِّوَاة.

اصنطَلَحَ المؤرِّخون على تسمية "عاد وثمود وطسم وجديس" العرب البائدة، ولعلَّ هذه التسمية جاءت من الآية الكريمة (٢) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ وكانت (عاد الأولى) في زعمهم من أعظم الأُمم بطُشاً وقوَّةً، وهم المُشار إليهم في الذِّكر الحكيم. أمَّا عاد الأخيرة فهم بنو تميم وينزلون برمال عالِج (٣).

وكان أمرُ عادٍ عند العرب في الشُّهرة في الجاهلية والإسلام كشُهرة إبراهيم وقومه كما يقول الطَّبْرِي (٤). لذلك بقوا في ذاكرة أهل الأخبار؛ لأنَّهم - كما يقول جواد علي (٥) - عاشوا بعد ميلاد السيِّد المسيح، ونبههم هود عليه السَّلام.

وسكنت عاد الأولى في الأحقاف بين حضرموت واليمن، وقيل: في موضع بئر (إزم) في منطقة حسمى بين أيلة وسيناء (٦)، وزعم المؤرِّخون أنَّ (إزم)

(٢) سورة النجم، الآية ٥٠-٥١.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ): لسان العرب، الدار المصرية للتأليف (د. ت) مادة (علج).

(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٧١١هـ): تاريخ الطبري، المطبعة الحسينية ١٣٢٦هـ، ج ١ ص ٢٣٢.

(٥) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨، ج ١، ص ٣٠٠.

(٦) ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م، ج ١ ص ١٩٦.

المذكورة في القرآن الكريم^(٧): «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ» مدينة من عهد عاد بين عدن وحضرموت، وقيل: هي دمشق أو الإسكندرية^(٨). ويُفهم من القرآن الكريم أَنَّ مساكن (عادٍ) بالأحقاف، قال تعالى^(٩): «وَأَذْكَرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ» والأحقاف: الرَّمْلُ بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشُّحْر، وقيل: رمال بأعيانها في أسفل حضرموت^(١٠). وينسبون إلى عاد وُلدًا اسمه "شَدَاد" نَسَجُوا حوله قَصَصًا خيالية^(١١).

وإذا عُدنا إلى الشُّعْر الجاهلي لَنَتَلَمَّس موروثات العرب الثقافية عن قوم عاد فسنجدها متشعبةً كثيرةً، تمتزج فيها الحقيقة بالأسطورة، والواقع بالخيال، وللشعراء رموزٌ ورؤىٌ شعرية فيما يُروى عن الأقدمين تصدر عن صُوَرٍ موحَّدة، وأنماطٍ من التَّفكير مُتَشَابِهَة.

(١)

تَخَيَّل الجاهليون عاداً أُمَّة قديمة جداً، بل هي أقدم الأمم، فقالوا في أمثالهم^(١٢): "أَقْدَمُ من عاد" ودخلت "عاد" في الحسِّ اللُّغوي العربي لثُمَّنَل القِدَم

(٧) سورة الفجر، الآية ٦-٧.

(٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب ج ١ ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٩) سورة الأحقاف، آية ٢١.

(١٠) ابن منظور، اللسان، مادة (حقف).

(١١) قصة شداد بن عاد، لمؤلف مجهول، مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، رقم ٤٩٣٢/٩

مجاميع.

(١٢) القالي، كتاب أفعال من كذا، حققه: محمد بن عاشور، تونس، ١٩٧٠م ص ٧٤.

وَبُعَدَ الْعَهْدَ، وَتَطَاوَلُ الْأَمَدَ، فيقولون: "عَادِيٌّ" و "إِرْمِيٌّ" عندما يَنْسَبُونَ شَيْئاً إِلَى الْقَدَمِ، كَالْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ، وَالنُّبُوتِ الْقَدِيمَةِ، وَالْأَبَارِ الْعَظِيمَةِ، قال الشاعر: (١٣)

وَكَمْ نَادَيْتُهُ فِي قَعْرِ سَاجٍ بِعَادِيٍّ الْبَّارِ فَمَا أَجَابَا

وقال آخر (١٤):

دَعَوْنَاهُ مِنْ عَادِيَّةٍ نَضَبَ مَأْوَاهَا وَهَدَمَ جَالِيَهَا اخْتِلَافُ عُصُورِ

وجعل عمرو بن معد يكرب "السَّاعِدَ" عادياً طويلاً مفاصل الأصابع، قال (١٥):

لَهُ هَامَةٌ مَا تَأْكُلُ الْبَيْضُ أُمَّهَا وَأَشْبَاحُ عَادِيٍّ طَوِيلِ الرِّوَابِجِ

والبَيْتُ الْعَادِيُّ: الْقَدِيمُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ بَانِيهِ، وَكَأَنَّهُ مِنْ مُخَلَّفَاتِ قَوْمِ عَادٍ، وَالْعَرَبُ يَرْمُزُونَ بِالْبَيْوتِ إِلَى الْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَأْتَرِ وَالرَّفْعَةِ وَالشَّرَفِ، قَالَ أَبُو الْبُرْجِ، الْقَاسِمُ بْنُ حَنْبَلٍ: (١٦)

فَأَمَّا بَيْتُكُمْ إِنْ عُدَّ بَيْتٌ فَطَالَ السَّمُكُ وَاتَّسَعَ الْفَنَاءُ

(١٣) الألويسي، محمود شكري (ت ١٣٤٢ هـ)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، حققه: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت) ج ٣ ص ٣.

(١٤) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤.

(١٥) عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الديوان، تحقيق: مطاع الطرابيشي، طبعة مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤م، ص ٥١، وانظر قول كثير "به قُلْبٌ عَادِيَّةٌ وَكُرُورٌ" لسان العرب، مادة (عود).

(١٦) المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ): شرح ديوان الحماسة، حققه: أحمد أمين وعبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣م، ج ٤، ص ١٦٥٩.

وَأَمَّا أُسُّهُ فَعَلَى قَدِيمٍ مِنْ الْعَادِيِّ إِنْ ذُكِرَ الْبِنَاءُ

وقال عامر المحاربي^(١٧):

وَتُرْسِي إِلَى جُرْثُومَةٍ أَدْرَكْتُ لَنَا حَدِيثًا وَعَادِيًّا مِنَ الْمَجْدِ خِضْرَمًا

وبذلك فَسَّرُوا قول الحارث بن حِزَّة اليشكري^(١٨):

إِرْمِي بِمِثْلِهِ جَاءَتْ الْجِ — نُنُ فَابَتْ لِحَصْمِهَا الْأَجْلَاءُ

نسبة إلى إرم عاد، أي: مُلْكُهُ قَدِيمٌ كان على عهد عاد إرم، وقال بعضهم: كَأَنَّ هَذَا الْمَدْحُ مِنْ إِرْمِ عَادٍ فِي الْجِلْمِ، كما قال الأَعْلَبُ الْعَجْلِي^(١٩):

جَاءُوا بِشَيْخِيهِمْ وَجِئْنَا بِالْأَصَمِّ شَيْخٍ لَنَا كَانَ عَلَى عَهْدِ إِرْمٍ

وقال آخرون: ذهب إلى أَنَّ جِسْمَهُ وَقُوَّتَهُ يُشْبِهَانِ أَجْسَامَ عَادٍ وَشِدَّتَهُمْ^(٢٠) وَيَدَّعُونَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ وَدُرُوعَهُمْ وَتُرُوسَهُمْ قَدِيمَةٌ عَادِيَّةٌ، كناية عن مَجْدِهِمُ الْمُؤْتَلِّ، وبأسهم

(١٧) المفضل الضبي (١٧٨هـ): المفضليات، حققه أحمد شاكر، دار المعارف ١٩٧٩م ص ٣٢٠.

(١٨) الأَنْبَارِيُّ، محمد بن القاسم (ت ٣٢٨): شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م، ص ٤٩٢.

(١٩) المصدر السابق، وحماسة ابن الشجري ص ٣٧. وهذا الرجز ينسب إلى عباس الأصم الرعلي فارس بني سليم في الجاهلية. انظر: ديوان الخنساء بشرح ثعلب، حققه: أنور أبو سويلم، دار عمار، الأردن ١٩٨٨م ص ٣٧٧.

(٢٠) المصدر السابق ص ٤٩٣.

القديم، وَأَنْتَهُمْ وَرَبُّوا الْعِزَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالتَّضْحِيَةَ عَنْ أَجْدَادِهِمُ الْقِدْمَاءِ، قَالَ رَاشِدُ بْنُ شَهَابِ الْيَشْكِرِيِّ (٢١):

لِعَادِيَّةٍ مِنَ الرَّمَاكِ اسْتَعْرَتْهَا وَكَانَ بِكُمْ فَقْرٌ إِلَى الْعَدْرِ أَوْ عَدَمٌ

وهذا المعنى مكرر في أشعارهم (٢٢):

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وَسِيفِي كَانَ عَهْدَ ابْنِ ضَدٍّ تَخَيَّرَهُ الْفَتَى مِنْ قَوْمِ عَادٍ

وقال الحصين بن الحُمام:

مُضَاعَفَةُ السَّرْدِ عَادِيَّةٌ وَعَضَبَ الْمَضَارِبِ مِفْصَالَهَا

وقال زهير بن أبي سلمى:

وَأَخْرَيْنَ تَرَى الْمَآذِيَّ عُدَّتَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَا قَدْ أَوْرَثَتْ إِرْمُ

(٢١) المفضل بن محمد الضبي (ت ١٧٨): المفضليات، تحقيق: أحمد شاکر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م ص ٣٠٩.

(٢٢) انظر: ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، طبعة دمشق ١٩٧٤م، ص ٩٣. وشعراء النصرانية قبل الإسلام، جمع: لويس شيخو، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧م، ص ٧٣٤ وديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق، بيروت ١٩٨٢، ص ١٢٣. المآذِي: الدروع اللينة.

وكان للحجارة العاديّة القديمة أهمية بالغة، فقد عبَدَ العَرَبُ الأنصابَ العاديّة وأقسَموا بها، قال المهلهل بن ربيعة (٢٣):

كَلَّا وَأَنْصَابٍ لَنَا عَادِيَّةٍ مَعْبُودَةٍ قَدْ قُطِعَتْ تَقْطِيعًا

ووصف زهير بن أبي سلمى طريقاً قديماً فقال (٢٤):

وَأَبْيَضَ عَادِيٌّ تَلُوحُ مُثُونُهُ عَلَى الْبَيْدِ كَالسَّيْحِ الْيَمَانِيِّ الْمُبَلِّجِ

ووصف امرؤ القيس إبل رجل بـ"إرَمِيَّاتٍ" (٢٥):

رُئِهَا أَوْضَعُ جَرْمٍ وَاحِدًا فِي لِقَاحِ إِرَمِيَّاتٍ رُفْدٍ (٢٦)

وقالوا: الإبل العيديّة نجائب معروفة منسوبة إلى عاد،

قال رذاذ الكلبي (٢٧):

ظَلَّتْ تَجُوبُ بِهَا الْبُلْدَانَ نَاجِيَةً عِيدِيَّةٌ أُرْهَتْ فِيهَا الدَّنَانِيرُ

(٢٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ١٧٢.

(٢٤) زهير بن أبي سلمى، الديوان ص ٢١٥.

(٢٥) امرؤ القيس بن حجر (ت ٥٤٠م): الديوان، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م، ص ٢١٥.

(٢٦) أَوْضَعُ جَرْمٍ: أَبْخَلَ مَنْ فِي الْحَيِّ، اللَّقَاحُ: النُّوقُ الَّتِي أَتَى عَلَيْهَا مِنْ حَمَلِهَا شَهْرَانٍ أَوْ ثَلَاثَةَ الرَّفُودِ: الَّتِي تَمَلَأُ مِنْ أَلْبَانِهَا الْأَرْقَادِ، وَهِيَ الْأَقْدَاحُ.

(٢٧) ابن منظور: اللسان، مادة (عود).

وإذا وصفوا شيئاً بالخلاء والفقار قالوا: "ما به من إرمٍ وأرمٍ".
قال المرفئش الأكبر (٢٨):

أَمَسَتْ خَلَاءَ بَعْدِ سُكَّانِهَا مُفْفِرَةً مَا إِنْ بِهَا مِنْ إِرْمٍ

وقال زهير بن أبي سلمى (٢٩):

دار لَأَسْمَاءَ بِالْعَمْرَيْنِ مَائِلَةٌ كَالْوَحْيِ لَيْسَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا أَرْمٌ

قال ابن سيده: (٣٠) الإرم والأرم: الحجارة، والآرام: الأعلام، وخصَّ بعضهم
بها أعلام (عاد).

وقال اللحياني: أرمي وإرمي، والأروم: الأعلام، وقيل: هي قبور عاد. وعمَّ به
أبو عبيدة، فقال: هي الأعلام.

ومن إرم اشتقوا "الأرومة" وهي أصل الشجرة، الراسخ القديم المؤثِّل، وتغني
الشرف القديم، والمآثر والحسب، قال أبو جندب الهذلي (٣١):

أولئك ناصريٍّ وهمُ أروميٍّ وبعضُ القومِ ليس بذِي أرومِ

(٢٨) المفضل الضبي، المفضليات ص ٢٢٩.

(٢٩) زهير بن أبي سلمى، الديوان ص ١١٦.

(٣٠) ابن منظور: اللسان، مادة (أرم).

(٣١) المصدر السابق، مادة (أرم)

وقال الأعشى^(٣٢):

مَا فَوْقَ بَيْتِكَ مِنْ بَيْتٍ عَلِمْتُ بِهِ وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا مِنْبِتُ الْعُودِ

وقال زهير^(٣٣):

لَهُ فِي الذَّاهِبِينَ أَرْوَمٌ صِدْقٍ وَكَانَ لِكُلِّ ذِي حَسَبٍ أَرْوَمٌ

ويتردد في الشعر الجاهلي ادعاءؤهم ملكية الجبال والحِمَى، وموارد المياه من عهد عاد، قال أبو دؤاد الإيادي^(٣٤):

أَلَا أَبْلِغُ خُرَاعَةَ أَهْلِ مُرٍّ وَإِخْوَتَهُمْ كِنَانَةَ عَنِ إِيَادِ
تَرَكْنَا دَارَهُمْ لَمَّا شَرَوْنَا وَكُنَّا أَهْلَهَا مِنْ عَهْدِ عَادِ

وقال رجل من طيء^(٣٥):

وَبِالْجَبَلَيْنِ لَنَا مَعْقِلَانِ صَاعَدْنَا إِلَيْهِ بِسُومِ الصَّعَادِ
مَلَكْنَاهُ فِي أَوْلِيَّاتِ أَرْمَاءِ نِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَمِنْ قَبْلِ عَادِ

(٣٢) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس (ت ٦٢٤هـ): الديوان، حققه: محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م ص ٣٢١.

(٣٣) زهير بن أبي سلمى، الديوان ص ١٥٤، وانظر ديوانه أيضاً ص ٢٨٢، ٢٣٢.

(٣٤) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ): التنبيه والإشراف، طبعة الصاوي، مصر، ص ١٧٥.

(٣٥) الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٥٠هـ): الإكليل، تحقيق: محمد ابن علي الأكوغ، بغداد، ١٩٨٠م، ج ١ ص ٩٠.

وقال قبيصة بن جابر: (٣٦)

وَتَيْمَاءُ التِّي مِنْ عَهْدِ عَادٍ حَمِيْنَاهَا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي

وقال بشامة بن حزن: (٣٧)

مِنْ عَهْدِ عَادٍ كَانَ مَعْرُوفاً لَنَا أَسْرُ الْمُلُوكِ وَقَتْلُهَا وَقَتْلُهَا

ورأى بعضُ المستشرقين أنَّ كلمة (عاد) لم تكنْ أَسْمَ عَلمَ في الأَصْل، بل كان يُرادُ بها القِدَم، وأنَّ (من عَهْدِ عاد) و(عاديّ) يعني منذ عهدٍ قديمٍ جداً، وأنَّ المعنى هو الذي حَمَلَ الناسَ على وضع تلك الأساطير عن أيام عاد، وهي أقوام خرافيَّة لا أساس لوجودها (٣٨).

(٣٦) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة بشرح التبريزي، دار القلم، بيروت (د.ت) ج ١ ص ٢٩٥.

(٣٧) أبو تمام، ديوان الحماسة ج ١ ص ١٥٠.

وانظر قول الطرماح من شعراء العصر الأموي:

لنا الجبلان من أزمان عادٍ ومُجْتَمَعِ الأَلَاءِ وَالْعِضَاهِ

وقول آخر:

تَمَدُّ عَلَيْهِ مِنْ يَمِينٍ وَأَشْمَلٍ بُحُورٌ لَهُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ وَتَبَعَا

لسان العرب، مادة (عود)

وقبيلة سويد بن أبي كاهل اليشكري غَلِبَتْ قَوْمَ عَادٍ مِنْ جَاءِ بَعْدِهِمْ: قال:

غَلِبَتْ عَاداً وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَأَبَتْ بَعْدُ فليس تُنْضَعُ

انظر: شعراء النصرانية، ص ٤٣٢.

(٣٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ ص ٣٠٨.

وما أوردناه من أشعار جاهلية يَدْحَضُ هذا الاستنتاج وسيأتي في مواضع من هذا البحث ما يُدَلِّل على معرفة العَرَب بأخبار عاد وقصصهم وأحوال معيشتهم وصفاتهم.

(٢)

جاء ذكر عاد في القرآن الكريم متَّصلاً بَثْمُود في أربعة وعشرين موضعاً، وأن ثمود خَلَفَتْهُم في مساكنهم الرَّفِهة وبنيانهم الشامخ، وقصورهم المنحوتة في الجبال، وما تَمَتَّعُوا به رَغَد العَيْش في جَنَّات وَعُيُون، وزرع وَنَخْل فَرِهِين، وما كان من جُحُودهم لآيات رَبِّهم وكفرهم بنبيِّ الله (هود)، وأن الله عَذَّبهم بريحٍ صَرَصَرَ عاتية^(٣٩).

وفي القرآن الكريم ثلاث سور تتَّصل بـ(عاد): (هُود) و(أَفْئان) و(الأَحْقَاف). وفي ذاكرة الإخبارين أساطير ومبالغات لا يَقْبَلُها العَقْل فيما يتَّصل بثناء عاد وما أُوتوا من نعيم، رَووا أَنَّ شَداد بن عاد كان قوياً جباراً سَمِعَ بوصف الجِنَّة فأراد بناء مدينة تَفُوقها حُسناً وجمالاً، فجمع ما في الأرض من ذهبٍ وفضَّة ودُرٍّ وياقوت، فابتنى مدينة (إِرم) باليمن لكنَّه لم يتمتَّع بها لكُفْرِهِ بُبُوءة هود، إذ أهلكه الله وَسَحَقَهُ^(٤٠).

ويبدو أَنَّ حكاية شداد بن عاد قد نُسِجت من أخيلة الفُصَّاص والمفسرين المسلمين في القرن الثاني الهجري معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم وأخبار الجاهليين عن ثراء عاد وبطشهم وشموخ بنيانهم.

(٣٩) انظر القرآن الكريم: سورة الأعراف، آية ٦٥، ٧٤، التوبة آية ٧٠، هود آية ٥٠، ٥٩، ٦٠، إبراهيم آية ٩، الحج، آية ٤٢، الشعراء، آية ١٢٣، ص آية ١٢، غافر آية ٣١، فُصِّلَتْ، آية ١٣، ١٥، الأَحْقَاف، آية ٢١، ق آية ١٣، الدَّارِيَات آية ٤١، القمر آية ١٨، الحاقَّة آية ٤-٦، الفجر آية ٦، الفرقان، آية ٣٨، العنكبوت، آية ٣٨، النجم، آية ٥٠.

(٤٠) انظر قصة شداد بن عاد، مخطوطة مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، رقم ٤٩٣٢/٩ مجاميع.

وفي الشعر الجاهلي إشارات قليلة إلى "أصناع" عادٍ وهي حُصُون وقصور منحوتة في الجبال، لكن هذه الأصناع لم تدفع عنهم المنية ولم تقهم غوائل الدهر والمصير المحنوم.

وعندما يعرضون لحتمية الموت وتفاهة ما يختصمون عليه، وبطش الدهر يتعزرون بمصائر من قبلهم من الأمم القديمة ذات البأس والشدة، وبمصير عاد "ذوي النعم" و"أصحاب الأصناع" و"أصحاب الملوك" لكن المال والملك والقوة لا تدوم، ولا تدفع المنية عن البشر. قال عمرو بن قميئة: (٤١)

قَد كَانَ مِنْ عَسَّانَ قَبْلَكَ أُمَّ لَأَكُّ وَمَنْ نَصْرٍ ذُووِ نِعَمِ
فَتَتَوَجَّؤُوا مُلْكَاً لَهُمْ هِمَمٌ فَفَنُؤُوا فَنَاءً أَوَائِلِ الْأُمَمِ
لَا تَحْسِبَنَّ الدَّهْرَ مُخْلِـدُكُمْ أَوْ دَائِماً لَكُمْ وَلَمْ يَدُمِ
لَوْ دَامَ لَنُبَّعَ وَذَوِي آلِ أَصْنَاعٍ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمِ

وضرب عمرو بن معد يكرب الزبيدي المثل بملوك اليمن وعاد وما كانوا عليه من نعيم وملك وجبروت؛ لكنهم بادوا وتحول ملكهم إلى من جاء بعدهم. قال لقيس ابن المكشوح عندما تهدهده: (٤٢)

أَتُوْعِدُنِي كَأَنَّكَ ذُو رُعَيْنِ بَأَفْضَلِ عَيْشَةٍ أَوْ ذُو نُؤَاسِ (٤٣)
وَكَأَنَّكَ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ نَعِيمِ وَمُلْكِ ثَابِتٍ فِي النَّاسِ رَاسِي
قَدِيمِ عَهْدُهُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ عَظِيمِ قَاهِرِ الْجَبْرُوتِ قَاسِي

(٤١) عمرو بن قميئة، الديوان، حققه: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٨٩-١٩٠.

(٤٢) عمرو بن معد يكرب الزبيدي، شعره، حققه: مطاع الطرابيشي، دمشق ١٩٧٤م ص ١١٧-١١٨.

(٤٣) ذو رعين: أحد ملوك اليمن، ورعين حصنه، ذو نواس: صاحب الأخدود.

فَأَمْسَى أَهْلُهُ بَادُوا وَأَمْسَى يُحَوَّلُ مِنْ أَنْاسٍ فِي أَنْاسٍ

ويرى سليمان بن ربيعة التَّلْبِي أن الحياة لا لَذَّةَ فيها ولا نعيم، ما دام الدهر يتحكم في أعمار البشر، وما دامت أمم عظيمة لم تُخَلِّدْ وزال عنها ملكها ونعيمها، قال: (٤٤)

ما لَذَّةُ الْعَيْشِ وَالْفَتَى لِلدَّهْرِ (م) وَالِدَهُرُ ذُو فُنُونٍ
أَهْلَكَ طَسْماً وَقَبْلَ طَسْمٍ أَهْلَكَ عَاداً وَذَا جُدُونٍ
وَأَهْلَ جَاشٍ وَمَأْرِبَ بَعْدَ حَيِّ لُقْمَانَ وَالتَّقُونِ (٤٥)
وَالْيَسْرَ لِلْعُسْرِ وَالتَّعْنَى لِفَقْرِ وَالْحَيِّ لِلْمُنُونِ

(٣)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هلاك عاد بالريح، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أمَّا الشعراء الجاهليون فنسبوا هلاك عاد إلى (الزَّمن) و(الحادثات) و(زَيْب الدَّهْرِ) و(الغول):

قال الأَعشى: (٤٧)

أَلَمْ تَرَوْا إِزْمَماً وَعَاداً أَوْدَى بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
بَادُوا فَلَمَّا أَنْ تَادُوا قَفَى عَلَى إِنْزِهِمْ فُذَارُ

(٤٤) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ): البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي

بالقاهرة ١٩٦٨م ج ١ ص ١٩٥.

(٤٥) التقون: بنو تَقْن بن عاد، اللسان، مادة (تقن).

(٤٦) الحاققة، آية ٦.

(٤٧) الأَعشى، الديوان ص ٣٣١.

قال زهير: (٤٨)

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِيَا وَلَا خَالِدًا إِلَّا الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ تَبْعًا وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

وقال عدي بن غطيف الكلبى: (٤٩)

أَهْلَكَنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَعَا وَالذَّهْرُ يَعْذُو عَلَى الْفَتَى جَدْعَا
كَمَا سَطَا بِالْأَرَامِ عَادٌ وَبِالْ- حَجْرٍ فَأَزْكَى لَتُبَّعٍ تَبْعَا

وقال رجل من عبس: (٥٠)

ليس امرؤ خالداً والموت يطئبه هاتيك أجساد عاد أصبحت جيفا

وقال أبو وجرة السعدي: (٥١)

صَبَبْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُكُمْ كَأَصْرَامِ عَادٍ حِينَ جَلَّهَا الرَّمْدُ

وقال رُشَيْدُ بْنُ رُمَيْضِ الْعَنْبَرِيِّ (٥٢):

(٤٨) زهير بن أبي سلمى، الديوان ص ٢٠٩.

(٤٩) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون ج ٧ ص ٢٥٦.

(٥٠) الجاحظ، الحيوان ج ٣ ص ٨٨.

(٥١) ابن منظور، اللسان، مادة (رمد).

"مَنْ يَلْفَنِي يُودِ كَمَا أُودِتْ إِرْمٌ".

وقال متمم بن نويرة: (٥٣)

ولقد علمتُ ولا مَحَالَةَ أَنَّنِي للحادِثَاتِ فهل تَرِنِّي أَجْرَعُ
أَفْنِيْنَ عَادَ ثَمَّ آلَ مُحَرَّقِ فَتَرَكْنَهُمْ بِلدَاً وما قد جَمَعُوا
ذَهَبُوا فلم أَدْرِكُهُمْ وَدَعَا ثَهُمْ غُولٌ أَتَوْهَا والطَّرِيقُ المَهْيَعُ

واستغلَّ خِداش بن عَمَلِيَّة إبادة عادٍ في تصوير إبادة مُرَّة والقبايل المُعادية،
واسْتَقْطَبَ في هذا التصوير دلالات الألفاظ بنحوٍ يُحدِّد تماماً رُؤيته الشعرية لهذا
الحدِّث التاريخي الهائل، قال: (٥٤)

عَدَدْتُمْ عَطْفَتَيْنِ ولم تَعُدُّوا وقائِعَ قد تَرَكْنَكُم حَصِيدًا
تَرَكْنَا عامِرِيَهُمْ مِثْلَ عَادِ ومُـرَّةً أَهْلَكُوا إِلَّا الشَّـرِيدًا

(٥٢) أبو تمام، ديوان الحماسة بشرح التبريزي، دار القلم، بيروت (د. ت) ج ١ ص ١٣٣.

وهذا البيت منسوب إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدي، انظر: ديوانه، ص ١٧٢.

وانظر أيضا قول الأَفوه الأودي:

فيما معاشر لم يبينوا لقومهم وإن بَنَى قومهم ما أفسدوا عادوا
كانوا كمثل نُقيم في عشيرته إذ أهلكت بالذي قد سدَّى لها عادُ
أو بعده كقदारٍ حين تابَعَهُ على الغواية أقوامٌ فقد بادوا

عبدالعزیز الميمني: الطرائف الأدبية، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت) ص ٩.

وهذا المعنى مكرر في الشعر الجاهلي، كقول الفُند الزماني

"لقيت تغلبٌ كعصبة من عاد" وقول الأسود بن يعفر:

"وأسبابه أهلكن عاداً وأنزلت... انظر: شعراء النصرانية ص ٢٤٣، ٤٨٤.

(٥٣) المفضل الضبي، المفضليات ص ٥٣.

(٥٤) خِداش بن زهير العامري، شعره، صنعة: يحيى الجبوري، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق

١٩٨٦م ص ٤٥.

ويحوّل عديّ بن زيد العبادي فكرة الفناء الذي أصاب الأمم القديمة إلى ألحانٍ جنائزية يُعزّي بها البشرية فيما يُشبه المرثاة الإنسانية لكل إنسان يَبْغِي الحَيَاةَ والبقاءَ خِلافاً لِسُنَّةِ الحَيَاةِ. قال: (٥٥)

أَيَّنْ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادٌ وَمَنْ بَعْدِهِمْ تَمُودُ
أَيَّنْ آبَاؤُنَا وَأَيَّنْ بَنُوهُمْ أَيَّنْ آبَاؤُهُمْ وَأَيَّنْ الْجُدُودُ
سَلَكُوا مَنِهْجَ الْمَنَائِيَا فَبَادُوا وَأَرَانَا قَدْ كَانَ مِنَّا وُرُودُ

وقال عدي أيضاً: (٥٦)

أَبَا شَرِيحٍ فَلَا تَحْزُنْكَ عِشْرَتُنَا فَاَلْمَرْءُ رَهْنٌ لِرَيْبِ الدَّهْرِ وَالْحَمَمِ
إِنَّ الْأَسَى قَبْلَنَا جَمٌّ وَنَعْلَمُهُ فِيمَا أُدِيلَ مِنَ الْأَجْدَادِ وَالْأُمَمِ
مَنْهُمْ رَأَيْتُ عَيَاناً أَوْ تَخَبَّرُهُ وَمَا تُحَدِّثُ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
وَدُونَ ذَلِكَ كَمْ مَلِكٍ وَمَغْبَطَةٍ بَادُوا وَكَانُوا كَفَيَّ الظِّلِّ وَالْحُلْمِ

ولم يرد في الشعر الجاهلي إبادة عادٍ بالريح إلا في قصيدة لعبيد بن الأبرص، قال فيها: (٥٧)

وَخَيْرَنِي ذُو البُؤْسِ فِي يَوْمِ بُؤْسِهِ خِصَالاً أَرَى فِي كُلِّهَا المَوْتَ قَدْ بَرَقَ

(٥٥) عدي بن زيد العبادي، الديوان، حققه: محمد جبار المعبيد، دار الجمهورية، بغداد ١٩٨٦م، ص ١٢٢.

(٥٦) عدي بن زيد العبادي، الديوان ص ١٧٠.

(٥٧) عبيد بن الأبرص، الديوان، حققه: حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٨.

كَمَا خَيْرَتْ عَادٌ مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً سَحَابِيبَ مَا فِيهَا لِذِي خَيْرَةٍ أَنْقِ
سَحَابِيبَ رِيحٍ لَمْ تُوَكَّلِ بِبِلْدَةٍ فَتَنَزَّكُهَا كَأَنَّهَا لَيْلَةُ الطَّلُقِ (٥٨)

ولا شكَّ أنَّ هذه الأبيات صدىً للموروث الشَّعبي في قصة هلاك عاد، إذ يروى في حكاية الاستسقاء أنَّ الله أنشأ سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، وتؤدي قبيل عادٍ: اختَر لنفسك ولقومك. فاختار السحابة السوداء لأنها أكثر مطراً، فلما رأوها قالوا: هذا عارضٌ ممطرٌنا، فأخذتهم صاعقة العذاب ودمرتهم الريح الصرصر تدميراً. ولا أستبعد النحل في هذه الأبيات التي لم أجد لها نظيراً في الشعر الجاهلي.

وفسَّر علماء المسلمين الريح الصرصر العاتية المذكورة في الذكر الحكيم، فقال التبريزي (٥٩): من الرياح الدُّبور، وهي المذكورة في القرآن، وعنه صلى الله عليه وسلم، قال: "نصرتُ بالصِّبَا وأهلكتُ عادٌ بالدُّبور" وفي ذلك يقول أبو شجاع:

إِنَّ الرِّيحَ الذَّرِيَّاتِ أَرْبَعُ مِنْهَا النُّعَامَى وَالصَّبَا وَالرَّعْرَعُ
ثُمَّ الدُّبُورُ مَرَّهَا لَا يَنْفَعُ قَدْ أَهْلَكَتْ عَادٌ بِهَا وَتُبَّعُ

ومن (عاد) شهر لُقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وسُميت سورة باسمه، ووصفه الله - تعالى - بالحكمة، وله وصايا في ابنه ذائعة مشهورة (٦٠):

(٥٨) الأثق: الإعجاب والسرور، الطلق: سير الليل لورد الغيبة وهو أن يكون بين الإبل والماء ليلتان ويعدده القرب.

(٥٩) التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، حققه: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٣١٠.

(٦٠) انظر: سورة لقمان، وتفسير الطبري ج ١٢ ص ٣٩.

وَضَرَبَ الْعَرَبُ بِحِكْمَتِهِ الْمَثَلَ (٦١). وقالوا إِنَّهُ عُمَرُ حَمْسَمَائَةَ سَنَةً وَسَتِينَ، فَكَانَ عُمَرُ مَضْرُوبَ الْأَمْثَالِ (٦٢).

وَيَذَكُرُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ (٦٣). أَنَّ عَادًا أَصَابَهُمْ قَحْطٌ تَتَابَعَ عَلَيْهِمْ، فَجَهَّزُوا وَفَدَّأَ إِلَى مَكَّةَ يَسْتَسْقُونَ فِي سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ لَقْمَانَ "لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ" وَآخَرُونَ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ نَزَلُوا بِظَاهِرِهَا عِنْدَ بَكْرِ بْنِ مَعَاوِيَةَ زَعِيمِ الْعَمَالِيقِ، وَأَقَامُوا عِنْدَهُ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَتُعْنِيهِمُ الْجَرَادَتَانِ، وَنَسُوا مَا جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ ... ثُمَّ خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِهِمْ سَحَائِبَ فَاسْتَبَشَرُوا بِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ رِيحًا فِيهَا كَشْهُبُ النَّارِ سَخَرَهَا اللَّهُ - عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا، وَكَانَ تَخَلَّفَ مِنَ الْوَفْدِ "لُقْمَانَ بْنُ عَادٍ" الَّذِي لَادَ بِالْكَعْبَةِ وَتَضَرَّعَ وَسَأَلَ اللَّهَ الْخُلُودَ، فَنُودِيَ أَنَّ قَدْ أُجِبْتُ دَعْوَتَكَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْخُلُودِ، وَلَكِنْ اخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ عُمَرَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ عَفُرٍ فِي جَبَلٍ وَعُرٍ، أَوْ عُمَرَ سَبْعَةَ أَنْسُرٍ، إِذَا مَاتَ نَسْرٌ تَبِعَهُ آخَرٌ، فَاخْتَارَ النَّسُورَ، فَعَاشَ عُمَرُ طَوِيلًا، وَكَانَ آخِرُ النَّسُورِ اسْمُهُ "لُبْدٌ" مَاتَ بِمَوْتِهِ، فَضَرَبُوا بِهِ الْأَمْثَالَ (٦٤).

(٦١) فِي الْمَثَلِ: أَحْكَمُ مِنْ لُقْمَانَ: مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ج ١ ص ٢٢٢، وَجُمْهُرَةُ الْأَمْثَالِ ج ١ ص ٤٠٥، وَالِدْرَةُ الْفَاخِرَةُ ج ١ ص ١٦٢.

(٦٢) أَبُو حَاتِمِ السَّجِسْتَانِي: الْمَعْمُرُونَ وَالْوَصَايَا، مَطْبَعَةُ الْبَابِي الْحَلِيبِي، الْقَاهِرَةُ، ص ٢.

(٦٣) الْقِصَّةُ مَخْتَصِرَةٌ بِتَصْرِفٍ عَنِ الْكَامِلِ فِي التَّارِيخِ ج ١ ص ٤٨-٤٩، وَالْبِدَاءُ وَالتَّارِيخُ ج ١ ص ٢٨-٣٠، وَأَخْبَارُ الزَّمَانِ ص ١٠٤ وَمَرْجُوزُ الذَّهَبِ ج ٢ ص ٩٢ وَجُمْهُرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ج ١ ص ٢٦، وَالْفَاخِرُ ص ٦٨ وَتَّارِيخُ الطَّبْرِيِّ ج ١ ص ٢٢٣، وَعَيُونُ الْأَخْبَارِ ج ٤ ص ٥٩، وَنَهَابَةُ الْأَرْبِ ج ١ ص ١٣، ص ٦٠.

(٦٤) فِي الْمَثَلِ: "أَتَى أَبْدٌ عَلَى لُبْدٍ" وَ"أَعْمَرُ مِنْ لُبْدٍ" الدَّرَةُ الْفَاخِرَةُ ج ١ ص ١٩٨، وَمَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ج ٢ ص ٥١، وَتَمَثَالُ الْأَمْثَالِ ص ٢٣١، وَجُمْهُرَةُ الْأَمْثَالِ ج ٢ ص ٧٥ وَالْمُسْتَقْصَى فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ ج ٢ ص ٢٥٤.

قال النابغة الذبياني (٦٥):

يا دار مَيَّةَ بالعلَياءِ فالسَّندِ أَفَوْتُ وَطَالَ عَلَيَّهَا سَالِفُ الأَبْدِ
أَمَسْتُ خَلَاءً فَأَمَسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيَّهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَيَّ لُبْدِ

فقد استغلَّ النابغة هذه الحكاية في تصوير دَمَارِ الدِّيارِ ومُحُولِها وأندثارِها، واستنقَطَبَ في هذا التصوير حكاية لقمان ونسوره، وفِعْلَ الرِّزْمِ وتأثيره في المَوْجُوداتِ، واستطاع أن يُحدِّدَ رُؤاه الشعرية لفِعْلِ الدَّهرِ وسَطُوتِهِ وبَطْشِهِ معتمداً على المَوروثِ الثقافي من حكاية لُقْمَانَ ولُبْدِ.

وقال لبيد بن ربيعة العامري (٦٦):

ولقد جَرَى لُبْدٌ فَأَدْرَكَ جَرِيَهُ رَيْبِ الرِّزْمَانِ وَكَانَ غَيْرَ مُتَّقِلِ
لَمَّا رَأَى لُبْدُ النُّسُورَ تَتَابَعَتْ رَفَعَ القَوَادِمَ كالفَقِيرِ الأَعزَلِ
مَنْ تَحْتَهُ لُقْمَانٌ يَرِجُو نَفْعَهُ وَلقد رَأَى لُقْمَانَ أَنْ لَمْ يَأْتَلِ (٦٧)

فالمرءُ يَهْرُبُ من الموت لكن الموت يُطارِدُهُ، ويَدُ المَئُونِ تَنَالُهُ أَيُّنَمَا اتَّجَهَ، وقد أفاد الشاعر من هذه الأسطورة الشَّعبية ووظَّفها لخدمة المَعْنَى الذي يقصد إليه، فلبد الذي يُمَثِّلُ الإنسانَ يَرى النُّسُورَ قبله يَهْوِي الواحِدُ تَلَوَ الآخرَ، ولا يَتَّعِظُ من غيره

(٦٥) النابغة الذبياني، الديوان، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م، ص١٦.

(٦٦) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه: إحسان عباس، طبعة وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت ١٩٦٢، ص١٦.

(٦٧) القوادِم: مُقَدَّم جناح النسر، الفقير: المكسور الفقار، الأَعزَل من الخَيْل: المائل الذنب، لم يَأْتَل: لم يَقْصُر في استبقاء النسر والحرص عليها، لكن القَدْر غَلَبَهُ.

فِيَحَاوِلُ الْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ الْمَحْتَمِ، وَأَيَّنَ الْمَفَرَّ مِنْ رَبِيبِ الْمُنُونِ الَّذِي يُطِيحُ بِكُلِّ حَيٍّ .
وَلُقْمَانَ وَنُسُورَهُ يُقَدِّمُهُمُ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيَّ أَنْمُودَجًا لِمَصِيرِ الْبَشَرِيَّةِ: الْفَنَاءُ الْمَحْتَمِ،
وَالْمَوْتُ الْمُوَكَّدُ.

وهذه الصورة يكررها طرفة بن العبد، فيقول (٦٨):

فَكَيْفَ يُرَجِّي الْمَرْءُ دَهْرًا مُخَلَّدًا وَأَيَّامُهُ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَاسِبُهُ
أَلَمْ تَرَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِ النَّسُورُ ثُمَّ غَابَتْ كَوَاكِبُهُ

أَمَّا أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ، فَيُرَى فِي "لُبْدٍ" مَثَلًا لِلصَّدَاقَةِ الْكَاذِبَةِ، وَالْخِيَانَةِ مِنَ
الصَّدِيقِ، قَالَ (٦٩):

خَانَتْكَ مِنْهُ مَا عَلِمْتَ كَمَا خَانَ الْإِخَاءَ خَلِيلُهُ لِابْدُ

وَاسْتَحَالَ نَسْرُ لُقْمَانَ لَدَى الشُّعْرَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ رِمَازًا لِلسَّلَامَةِ وَطُولِ الْعُمُرِ،
وَعِنْدَمَا يَتَنَاقَلُونَ حِكَايَتَهُ فِي أَشْعَارِهِمْ يَسْتَنْدُونَ إِلَى قِيَمِ بِلَاغِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِنَادِهِمْ
إِلَى قِيَمِ أُسْطُورِيَّةٍ، قَالَ سَهْلُ بْنُ أَبِي غَالِبِ الْخَزْرَجِيِّ يَصِفُ طُولَ عَمْرِ مَعَاذِ بْنِ
مُسْلِمِ بْنِ رَجَاءٍ (٧٠):

إِنَّ مَعَاذَ بْنَ مُسْلِمٍ رَجُلٌ قَدْ ضَحَّجَّ مِنْ طُولِ عَمْرِهِ الْأَبْدُ

(٦٨) طرفة بن العبد، الديوان، حققه: لطفی الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥م،
ص ١٤١.

(٦٩) أوس بن حجر، الديوان، حققه: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م ص ٢٢.

(٧٠) الجاحظ، الحيوان ج ٣ ص ٤٢٣ و ج ٦ ص ٣٢٧.

قَد شَابَ رَأْسُ الزَّمَانِ وَاكْتَهَلَ الدَّ (م) هُرٌّ وَأَثْوَابُ عُمَرِهِ جُدُّ

يَا نَسِرَ لِقْمَانَ كَمْ تَعِيشُ وَكَمْ تَسْحَبُ ذَيْلَ الْحَيَاةِ يَا لَبُدُّ

* * *

وَمَيَّزَ بَعْضَ الْإِخْبَارِيِّينَ وَالْمُفَسِّرِينَ بَيْنَ لُقْمَانَ عَادَ، وَلُقْمَانَ الْحَكِيمِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَزَعَمُوا أَنَّ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ عَاشَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ دَاوُدَ، قَالَ الْجَاهِظُ (٧١) "وَمِنَ الْقُدَمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يُدَكَّرُ بِالْقَدْرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَالْبَيَانِ وَالْخَطَابَةِ، وَالْحِكْمَةِ وَالذَّهَاءِ: لُقْمَانُ بْنُ عَادَ، وَلُقَيْمُ بْنُ لِقْمَانَ .. وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُعَظِّمُ شَأْنَ لِقْمَانَ بْنِ عَادِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرَ، وَلُقَيْمُ بْنُ لِقْمَانَ فِي النَّبَاهَةِ وَالْقَدْرِ، وَفِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ، وَفِي اللِّسَانِ وَالْحِلْمِ، وَهَذَا غَيْرُ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُفَسِّرُونَ".

وَيَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الْجَاهِظِ أَنَّ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ هُوَ نَفْسُهُ لِقْمَانَ عَادِ الْمَوْصُوفِ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَاللِّسَنِ وَالْحِلْمِ وَالنَّبَاهَةِ. وَهَذَا مَا أَرَجَّحُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمَفْسِّرُونَ يَنْكُرُونَهُ.

وَيَهْمُنَا هُنَا أَنَّ حِكْمَةَ لِقْمَانَ بَقِيَتْ مَحْفُوظَةً فِي كِتَابِ إِلَى مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي حَدِيثِ سُؤِيدِ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ مَرَّ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَتْبَاعَهُ، فَقَالَ لَهُ: لَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلَ الَّذِي مَعِي، فَقَالَ: وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ سُؤِيدٌ: مَجَلَّةٌ لِقْمَانَ (يُرِيدُ كِتَابًا فِيهِ حِكْمَةُ لِقْمَانَ) فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: اعْرِضْهَا عَلَيَّ،

(٧١) الجاهظ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ و٣٦٥، والبرصان والعرجان، حققه: محمد مرسي الخولي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٧م، ص ٢٠٢.

فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا لِكَلَامٍ حَسَنٍ، وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ، قَرَّانَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ -
تَعَالَى - هُوَ هُدًى وَنُورٌ (٧٢).

وزعم وهب بن منبّه أنه قرأ من حِكْمَةِ لِقْمَانَ نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ بَابِ (٧٣).

وقد جمع أحد العُلَمَاءِ حِكْمَتَهُ وَأَمْثَالَهُ وَأَخْبَارَهُ فِي كِتَابِ سَمَاءِ "أَمْثَالِ لُقْمَانَ
الْحَكِيمِ" (٧٤) وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين نماذج من أمثاله وحكمه، قال لابنه:
أَيُّ بُنِيِّ، إِيَّيْ نَدِمْتُ عَلَى الْكَلَامِ وَلَمْ أَنْدَمْ عَلَى السُّكُوتِ (٧٥).

وقال له: يَا بَنِيَّ، إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضَّجَرَ، فَإِنَّكَ إِذَا كَسَلْتُمْ لَمْ تُؤَدِّ حَقًّا، وَإِذَا
ضَجَرْتُمْ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَقِّ (٧٦).

وقال له: ثَلَاثَةٌ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَوَاطِنَ: لَا يُعْرِفُ الْحَلِيمُ إِلَّا عِنْدَ الْغَضَبِ،
وَلَا الشُّجَاعُ إِلَّا فِي الْحَرْبِ، وَلَا تَعْرِفُ أَحَاكَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ (٧٧).

(٧٢) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: عبدالسلام هارون، البابي الحلبي، القاهرة ج ٢ ص ٦٨.
والزمخشري: الفائق ج ١ ص ٢٠٦، واللسان، مادة (جلل).

(٧٣) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ): كتاب المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار
المعارف بمصر ١٩٦٩م ص ٢٥.

(٧٤) كتاب المجلة في الأمثال لأبي عبيد (ت ٢١١هـ) ذكره ابن خبير الإشبيلي في فهرسه ص ٣٤١،
ونشر جالان الفرنسي أمثال لقمان سنة ١٧٠٨م ونشر أمثال لقمان الحكيم، جوزيف دير نبورغ، لندن
١٨٥٠م، وترجمها إلى الفرنسية دي برسفال ١٨١٨م وشريونو ١٨٤٧م ومارسيل سنة ١٧٩٩، ونشرها
في هولندا المستشرق أربيانوس، ونشرها في ألمانيا سنة ١٨٤٣ المستشرق الألماني فرايتاج.

(٧٥) الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦٩.

(٧٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤.

(٧٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ وانظر أنموذجاً آخر في البيان والتبيين أيضاً ج ٢ ص ١٤٩، وروى
المقري، أبو عبدالله محمد بن أحمد كتاب المختار من نوادر الأخبار، تحقيق: د.أنور أبو سويلم، مؤسسة
الرسالة، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٢٥ - وصية مطولة للقمان الحكيم. وانظر كذلك غرر الخصائص
الواضحة للوطواط، دار صعب، بيروت، ص ٨٧.

وفي الشعر الجاهلي إشارات قليلة إلى حكمة لُقمان، قال المسيب بن
عَلَس (٧٨):

ولأنت أبين حين تتطيق من لُقمان لَمَّا عَيَّ بالأمر

وقال لبيد بن ربيعة (٧٩):

وأخلف فسأ: لِيَتِّي ولو أنِّي وأعيًا على لُقمان حُكم التَّدبُّرِ

وقال أبو قيس بن الأسلت في مدح أبي أحيحة سعيد بن العاص (٨٠):

وكان أبو أحيحة قد علمتم إذا شدَّ العصابة ذات يوم
بمكة غير مهتضم نَمِيم وقام إلى المجالس والخصوم
وكان البخثري غداة جمع يُدافعهم بلُقمان الحكيم

ويروون أن زيان بن سيار الفزاري رحل مع النابغة الذبياني يريد الغزوة، فنظر
وإذا على ثوبه جرادة، فتطير ورجع، ومضى زيان وعاد بالغنائم، فقال زيان في
ذلك (٨١):

تخبَّرَ طيْرُهُ فِيهَا زِيَادٌ لُتْخِبِرُهُ وَمَا فِيهَا خَبِيرُ
أَقَامَ كَأَنَّ لُقْمَانَ بَنَ عَادٍ أَشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مَشِيرُ

(٧٨) الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٩، وهو منسوب للأعشى، الديوان ص ٣٥١.

(٧٩) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٩. أي في تمنّيه وقوله: ليتني .. ولو أني.

(٨٠) المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٧.

(٨١) الجاحظ، الحيوان ج ٣ ص ٤٤٧.

وقد أكثر الشعراء الإسلاميون من ذِكر لُقْمَانَ الحكيم ووصاياه ولَسَنَه
وفصاحته وحِكْمَتِه^(٨٢):

وَضَرَبُوا المَثَلَ بِأَيْسَارِ لُقْمَانَ، قالوا: هم ثمانية رجالٍ من العمالِيقِ(*)، ما
فيهم أَحَدٌ إِلَّا جَمَعَ من الصِّفَاتِ الكريمةِ أَسْمَاهَا، فيهم الحِلْمُ، والطُّهْرُ، والكَرَمُ. وقد
اتَّخَذَهُم شعراءُ الجاهليةِ رمزاً للسَّمَّاحَةِ والرِّئاسَةِ والجُودِ وإِغَاثَةِ المَلْهُوفِينَ، والحِلْمِ
عن السُّقْمَاءِ، قال امرؤ القيس حين نزل على خالد بن سدوس النبهاني^(٨٣):

إِذَا مَا كُنْتَ مُفْتَخِرًا فَفَاخِرِ بِيَّتِ مِثْلِ بِيَّتِ بَنِي سَدُوسَا
بِيَّتِ تُبْصِرُ الرُّوسَاءَ فِيهِ قِيَامًا لَا تُتَّازَعُ أَوْ جُلُوسَا
هُمُ أَيْسَارُ لُقْمَانَ بِنِ عَادٍ إِذَا مَا أَجْمَدَ المَاءِ القَرِيْسَا

وقال أوس بن حجر: ^(٨٤)

(٨٢) قال الصَّلْتَانُ العبدي: "ألم ترَ لُقْمَانَ أَوْصَى بِنِيهِ ... إلخ" شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ج ٣
ص ١٢١٠، وقال أبو دلامة الأَسدي: "فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكلفك لُقْمَانَ الحكيم" ديوانه. تحقيق:
رشدي حسن، دار عمار ١٩٨٦، ص ٤٢، وقالت ابنة وثيمة بن عثمان: "بلسان لقمان بن عادٍ وقُصِّلَ
خطبته الحكيمة" البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣.

(*) وهم: بيض وحممة (حممة) وطفيل، وذفافة، وملك (مالك) وثمانيل (نميل) وفروعة (فرزعة) وعمار.
(٨٣) امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٥٤٠ م): الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار
المعارف بمصر ١٩٦٤ م ص ٣٤٤. الماء القريس: الجامد من شدة البرد.

(٨٤) أوس بن حجر، الديوان ص ٣٣. تخم لحامهم: يدخرونها فتخم وتفسد، الصولر: قطع البقر،
الشول: جماعة الإبل التي ارتفع لبنها عند الحمل أو البرد أو الجوع. وجرت الناقة: لم تنتج.

وفتيان صدق لا تخم لحامهم
وأيسار لقمان بن عادٍ سَمَاحَةً
إذا شُبَّ النَّجْمُ الصَّوَارِ النَّوَافِرَا
وجوداً إذا ما الشَّوْلُ أُمْسَتْ جَرَائِرَا

وقال طرفة بن العبد^(٨٥):

فَفِدَاءٌ لِبَنِي قَيْسٍ عَلَيَّ
وَهُمْ أَيَسَارُ لُقْمَانَ إِذَا
مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ سُرٍّ وَضُرٍّ
وَعَلَى الْأَيْسَارِ تَيْسِيرُ الْعَسِيرِ
أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ أَبْدَاءَ الْجُرُزِ
لَا يُلْحُونَ عَلَيَّ غَارِمِهِمْ

وإلى أيسار لقمان كانت إشارة النابغة الذبياني في مدح بني عسان، قال^(٨٦):

هُمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَهُمْ
أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادُ مُطَهَّرَةٌ
فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّوَاءِ وَالنَّعَمِ
مِنَ الْمَعْقَةِ وَالْأَقَاتِ وَالْإِثْمِ

وفي الشعر الجاهلي إشارات إلى قصص خرافية نسجها خيال القدماء عن قوم عاد، ولم يبق من هذه الحكايات إلا بقايا متناثرة، كحديثهم عن "كَلْبِ طَسْمٍ" وكانوا يضربون به المثل في مكافأة المحسن بالإساءة، ويزعمون أن طسماً قوم من عاد، انقرضوا، وكان لهم كلب يُحْسِنُونَ إليه، ويبالغون في تكريمه حتى إنهم يسبقونه

(٨٥) طرفة بن العبد، الديوان، ص ٧٢.

(٨٦) النابغة الذبياني، الديوان، ص ١٠١، وانظر أيضاً قول زهير بن مسعود:

كَأَنَّهم عَادٌ حُلُومًا إِذَا
طَاشَ مِنَ الْجَهْلِ الْقَطَارِيْبُ

ومعنى القطاريب هنا: السفهاء الجهال.

يحيى الجبوري، قصائد جاهلية نادرة. دار الرسالة، بيروت ١٩٨٢م، ص ٩٤.

ومعنى اللأواء في بيت النابغة: الشدة وسوء الحال، والمعقة: عقوق الرّحم.

الحليب أَيَّامَ الجَدْبِ بينما أولادهم مُسْعِجِينَ، (وقد يكون هذا التكريم من قبيل الطوطمية^(٨٧) عند الشُّعوب البدائية) ويزعمون أنّ هذا الكلب قد دَلَّ بنباحه العدو على مضارب طَسَم، فاستباحوهم وقتلوهم.

وقد أفاد طرفة بن العبد من هذه الأسطورة في تصوير إحصانه إلى ملوك المناذرة ومدحه لهم، وما جَرَّهُ هذا المدح وهذا الإحسان من شقاءٍ وبُؤسٍ على فاعله، قال: (٨٨)

هَمُّ عَرَائِي فِي تِ أَدْفَعَهُ دُونَ سُهَادٍ كَشَعْلَةِ الْقَبَسِ
كُنْتُ لَنَا وَالذُّهُورِ آوِنَةٌ تَقْنُلُ حَالَ النَّعِيمِ بِالْيُؤُسِ
كَكَلْبِ طَسَمٍ وَقَدْ تَزَيَّبَهُ يُعْلُئُهُ بِالْحَلِيبِ فِي الْعَلَسِ
إِنَّ شِرَارَ الْمُؤُوكِ قَدْ عَلِمُوا طُرّاً وَأَدْنَاهُمْ مِنَ الدَّنَسِ
عَمْرُؤُ وَقَابُوسٌ وَابْنُ أُمَّهَمَا مَنْ يَأْتِيهِمُ لِلْحَنَّا فَمُحْتَبَسِ

ومن بقايا أساطير عاد أن رجلاً من العمالقة اسمه "حِمار" وقيل "عَيْر" كان له بنون وواد خصيب، فأصابته بنيه صاعقة فأحرقتهم، فَكَفَرَ بالله، وقال: لا أعبد رياً أحرق بني، وكان لا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلا دَعَاهُ إلى الكُفْرِ، فإنَّ أجابه، وإلا قَتَلَهُ^(٨٩)، فضربوا بكُفْرِهِ المثل^(٩٠). فسَلَطَ اللهُ على واديه ناراً- والوادي في لغة أهل اليمن

(٨٧) الطوطمية: كلمة أجنبية من لغة هنود أمريكا، دخلت اللغة الإنجليزية، ويراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب تربطه بطوطمه، وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً، وهو يحمي صاحبه الذي يحترمه ويقده.

انظر: جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة، مصر ١٩٧١.

(٨٨) طرفة بن العبد، الديوان ص ١٦٥.

(٨٩) ابن منظور: لسان العرب، مادة (كفر).

(٩٠) في المثل: "كُفْر من حمار" الدرة الفاخرة ج ٢ ص ٣٦٧، مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٦٨.

جمهرة الأمثال ج ٢ ص ١٧٧، ولسان العرب، مادة (كفر) و(حمر).

يقال له جَوْفٌ - فأحرقته فما بقي منه شيء، فضربوا به المثل في الإفقار وفي كل ما لا بقيّة له^(٩١)، وهو الذي عناه امرؤ القيس بقوله من معلقته:^(٩٢)

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الدُّنْبُ يَعْوِي كَالخَلِيعِ الْمُعَيَّلِ^(٩٣)

ورسم القدماء للقمان صوراً أسطورية في عمره الذي امتدّ مئات السنين، وزعموا أنه كان يتعدّى بجُرُورٍ وَيَتَعَشَّى بجُزُورٍ، وضربوا بأكلِهِ المثل^(٩٤). وتخليوه كبيرَ الجُنَّةِ، قويَّ البُنْيَةِ، مُنْجِباً، كبيرَ الرّأسِ، وضربوا برأسِهِ المثل^(٩٥). قال يزيد بن الصَّعْقِ الكلابي:^(٩٦)

إِذَا مَاتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ فَسَرَكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِيءُ بِرَادٍ
تَرَاهُ يَطُوفُ فِي الْآفَاقِ حِرْصاً لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ

ويروون أنّ أُحْتَّ لقمان كانت مُحَمِّقَةً^(٩٧) وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طُهْرِي، وهي ليلتُك، فدعيني أُنَامُ في مَضْجَعِك، فإنّ لقمان

(٩١) في المثل: "أخلى من جَوْفِ حمار" الدرة الفاخرة ج ١ ص ١٨٠ ومجمع الأمثال ج ١ ص ٢٥٧،

وجمهرة الأمثال ج ١ ص ٤٣٥ والمستقصى ج ١ ص ١٠٩.

(٩٢) الأتباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٨٠-٨١.

(٩٣) الخليع: المُقَامِر، المُعَيَّل: الكثير العيال.

(٩٤) في المثل: "أكل من لُقْمَانَ" الدرة الفاخرة ج ١ ص ٧٤ ومجمع الأمثال ج ١ ص ٨٦، وجمهرة الأمثال

ج ١ ص ٢٠١ والمستقصى ج ١ ص ٧.

(٩٥) ثمار القلوب ص ٢٥٧.

(٩٦) الجاحظ، الحيوان ج ٣ ص ٦٧ والبيان والتبيين ج ١ ص ١٩٠.

(٩٧) أي تَلد الحمقى.

رجل مُنْجِب، فعسى أن يَقَعَ عليَّ فَأُنْجِب. فوقع على أخته فحملت بلُقيْم، وفي ذلك يقول النَّمْر بن تَوْلَب: (٩٨)

لُقَيْمُ بْنُ لَقْمَانَ أُخْتِيهِ وكان ابنَ أُخْتٍ لَهُ وَابْنَمَا
لِيَالِي حُمُقٍ فَاسْتَحْصَنَتْ عليه فَعُرَّ بِهَا مُظْلَمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكِمٌ فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

ويروى أن لقمان بن عاد قتل ابنته صُحْرًا لأنه كان تزوّج عدة نساءٍ كلهن خُنَّه في أنفسهنّ (٩٩).

وقد أفاد الشعراء من هذه الحكاية في تصوير براءتهم من ذنوبٍ لم يقتربوها، فكان جزاؤهم جزاء صُحْر ابنة لقمان، قال خفاف بن ندبة: (١٠٠).

وعِيَّاشُ يُدِبُّ لِي الْمَيَا وما أذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُحْرٍ

وقال عُرْوَة بن أُذينة: (١٠١)

أَتَجْمَعُ تَهَيِّمًا بِلَيْلَى إِذَا نَأَتْ وهَجْرَانَهَا ظَلْمًا كَمَا ظَلَمْتُ صُحْرُ

(٩٨) النمر بن تولب، شعره، صنعة: نوري القيسي، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨ ص ١٠٦-١٠٧.

(٩٩) يبدو أن قصة شهرزاد وشهريار قد استندت في مضمونها إلى هذه الحكاية.

(١٠٠) الجاحظ، الحيوان ج ١ ص ٢٢ وثمار القلوب ص ٢٤٥.

(١٠١) الجاحظ، الحيوان ج ١ ص ٢٢.

الخلاصة

(١) حاول هذا البحث تلمّس العلاقة بين الشعر الجاهلي والموروث الثقافي القديم في ضوء "قصة عاد" المذكورة في الذكر الحكيم والشعر الجاهلي. وأثبت أنّ الشعراء العرب قد اتخذوا من عاد- اعتماداً على موروثاتهم التاريخية والأسطورية- رموزاً محدّدة كالقَدَم، والأصالة، والمُلْك، والهَلَاك، والزَّمَن، والحِكْمَة، والجِلْم، والجَزَاء.

وقد أفاد الشعراء الجاهليون من هذه الرموز في قصائدهم واستقطبوا معلوماتهم الأسطورية وموروثاتهم الشعبية في الصورة الشعرية.

(٢) أثبتَ هذا البحث أنّ القصيدة الجاهلية تستوعب الحكايات الموروثة والأمثال والمأثورات الشعبية، وتعتمد "الإشارة و"الرّمز" أحياناً بدلاً من التصريح والخطاب المباشر. وتُصنّف فيها الثقافة والأساطير القديمة مع التجارب الشخصية والرؤى الشعرية.

(٣) تأثر الشعر العربي المعاصر بشعراء أوروبية الحديثة في استخدام التراث اليوناني والعالمي وما فيه من أساطير خرافية ورموز للحب والجمال والقهر والحكمة، والخير والشر ... مثل: فينوس، وأفروديت، وكيوبيد، وسيزيف...

وهذا البحث يُدلّل على أنّ العرب في الجاهلية قد استخدموا الرموز الأسطورية والتاريخية في قصائدهم قبل شعراء أوروبية، وأنّ ما يُظنُّ جديداً في الشعر العربي الحديث، هو في واقعِهِ ليس كذلك.

المراجع

- الألوسي، محمود شكري - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، حققه: محمد بهجة الأثري. دارالكتب العلمية، بيروت.
- أرسطو طاليس، ١٩٥٣ - فن الشعر، ترجمة: عبدالرحمن بدوي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- الأصمعي، عبدالملك بن قريب، ١٩٦٧م - الأصمعيات، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون. دار المعارف بمصر.
- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس ١٩٥٠م - الديوان، حققه: محمد محمد حسين. مكتبة الآداب، مصر.
- امرؤ القيس بن حجر، ١٩٦٤م - الديوان، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر.
- الأنباري، محمد بن قاسم، ١٩٦٩ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، حققه: عبدالسلام هارون. دار المعارف بمصر.
- أوس بن حجر، ١٩٦٧ - الديوان. حققه: محمد يوسف نجم. دار صادر، بيروت.
- التيفاشي، ١٩٨٠م - سرور النفس بمدارك الحواس الخمس. حققه: إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- الجاحظ، عمرو بن بحر ١٩٦٨م - البيان والتبيين، حققه: عبدالسلام هارون. مطبعة البابي الحلبي مصر، والحيوان، حققه: عبدالسلام هارون. مطبعة البابي الحلبي القاهرة. ١٩٨٧ - البرصان والعرجان، حققه. محمد مرسي الخولي. مؤسسة الرسالة، بيروت.

- جواد علي، ١٩٦٨ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت.
- خدّاش بن زهير العامري، ١٩٨٦م - شعره، صنعة: يحيى الجبوري. مجمع اللغة العربية، دمشق.
- زهير بن أبي سلمى، ١٩٨٢م - شرح شعره، صنعة ثعلب، حققه: فخر الدين قباوة. دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- الزمخشري، ١٩٦٢م - المستقصى في أمثال العرب. حيدر آباد، الدكن، الهند.
- السجستاني، أبو حاتم - المعمرون والوصايا. مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- سحيم عبد بني الحساس، ١٩٦٨ - الديوان، حققه: عبدالعزيز الميمني. دار الكتب المصرية، القاهرة.
- الطبري، محمد بن جرير، ١٩٧٩م - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، وطبعة المطبعة الحسينية بمصر.
- طرفة بن عبد البكري، ١٩٧٥م - الديوان، حققه: لطفي الصقال. مجمع اللغة العربية، دمشق.
- الطرمّاح بن حكيم، ١٩٦٨م - الديوان، حققه: عزة حسن. طبعة دمشق.
- عبيد بن الأبرص، ١٩٥٧م - الديوان، حققه: حسين نصار. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- عدي بن زيد العبادي، ١٩٦٥م - الديوان، حققه: محمد جبار المعبيد. دار الجمهورية، بغداد.

- العسكري، ١٩٦٤م - جمهرة الأمثال، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة.
- عمرو بن قميئة، ١٩٦٥م - الديوان، حققه: حسن كامل الصيرفي. معهد المخطوطات العربية، القاهرة.
- عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ١٩٧٤م - شعره، حققه: مطاع الطرابيشي. دمشق.
- فريزر. سير جيمس، ١٩٧١م - الغصن الذهبي، ترجمة: أحمد أبو زيد. الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
- القالي، أبو علي، ١٩٧٠م - أفعال من كذا، حققه: محمد الفاضل بن عاشور. تونس.
- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، ١٩٦٩م - المعارف، حققه: ثروت عكاشة. دار المعارف بمصر.
- لبيد بن ربيعة العامري، ١٩٦٢م - الديوان، حققه: إحسان عباس، مطبعة وزارة الإرشاد، الكويت.
- مجهول - قصة شداد بن عاد. مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة، بغداد رقم ٤٩٣٢/٩ مجاميع.
- المرزوقي، أحمد بن محمد، ١٩٦٨م - شرح ديوان الحماسة، حققه: أحمد أمين وعبدالسلام هارون. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- المسعودي، علي بن الحسين - التنبيه والإشراف. مطبعة الصاوي. مصر.
- المفضل الضبيّ بن محمد بن يعلى، ١٩٧٩م - المفضليات، حققه: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون. دار المعارف بمصر.

- ابن منظور، محمد بن جلال الدين الخزرجي - لسان العرب. الدار المصرية للتأليف، القاهرة.
- الميداني، أحمد بن محمد، ١٩٥٥م - مجمع الأمثال، حققه: محمد محيي الدين عبدالحميد. مطبعة السنة المحمدية، مصر.
- النابغة الذبياني، ١٩٧٧م - الديوان، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر.
- النمر بن تولى، ١٩٦٨م - شعره، صنعة: نوري القيسي. مطبعة المعارف بمصر.
- ابن هشام، عبدالملك - السيرة النبوية، حققه: عبدالسلام هارون. مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- الهمداني، الحسن بن أحمد، ١٩٨٠م - الإكليل، حققه: محمد بن علي الأكوغ. طبعة بغداد.
- ياقوت الحموي، ١٩٦٥م - معجم البلدان. دار صادر، بيروت.